الفصل الثاني

موضوعات الشعر العذري

obeikandl.com

obeikandl.com

موضوعات الشعر العذري

إن قصص الحب العذري وما جرى للشعراء العذريين تكاد تكون قصة واحدة سواء أكان ذلك في الجاهلية أم في صدر الإسلام أم في العصر الأموي، فقصة المرقش الأكبر في الجاهلية لا تختلف عن قصة عروة بن حزام في صدر الإسلام ولا تختلف عن قصة جميل بثينة في العصر الأموي، فالشاعر يحب فتاة من قبيلته وقد تكون ابنة عمه ، ويعبر عن عواطفه وحبه بالشعر، والحب يلهم المحب ويفتق له فنون الشعر ويشتهر هذا الحب، ويحاول أن يخطبها من أهلها فيمتنعون ويرفضون لأنهم يرون أن الزواج ممن أحبها وشهرها بشعره عار لا يرضونه، فيدفعونه، وإذا كان ابن عمها فإنهم يعجزونه بمهر كبير لا يستطيعه، وقد يذهب للحصول على المال بمدح الملوك في أطراف الجزيرة فإذا عاد وجد أن عمه قد زوج ابنته من أول خاطب ، ويزداد شوق الشاعر ويهيم بحبها، والحرمان يؤجج الأشواق، فيحاول أن يزورها فيمنعونه بقوة السلطان الذي يهدر دمه، وهكذا تتكرر القصة لدى كل شاعر من الشعراء العذريين مع شيء من التغيير في التفصيلات والأصل واحد .

ويستمر الشاعر ينادي حبيبته ويكلمها على البعد ويشكو لها ويتمنى لقاءها ويعبر في كل ذلك عن عواطفه وأمنياته ويبكي حظه وحرمانه، ويطلق لخياله العنان فيراها في الصحو والمنام ويرى طيفها ويسمع صوتها ويحدثها على البعد فهو يرى صورتها في الظبية والنجمة والقمر والشجر والسحاب، ويسمع صوتها في نسيم الريح وهفيف الشجر

وخرير الماء . وهكذا كان الشعر قد عبر عما يحسه الشاعر وما يتمناه وما يكابده من مرارة الظلم ؛ ظلم الأهل والسلطان والعذال والوشاة، ومن هنا جاء شعر العذريين متشابهاً في موضوعاته ومعانيه وأسلوبه السهل الذي هو صدى للعواطف الملتهبة والشعور الصادق والألم الممض ينطلق على السجية ، وهو نفحات وحسرات تضمنتها أبيات أو مقطعات وقصائد قصيرة، وقلما كانت فيه القصائد الطوال، ولأن الموضوع واحد والعواطف والأحاسيس والمشاعر واحدة فقد جاء الشعر متشابهاً وقد ينسب شعر شاعر لآخر من المحبين العذريين .

وقد اتسم هذا الشعر بالطهر والعفة والنقاء، وهو شعر الحرمان والحب الطاهر الذى لا يرى المرأة جسداً بل روحا وحباً ملتهباً، وحقاً إن الإسلام قد أضفي على هذا الحب الطهارة والزهد والتقى، وقد أضفت الأعراف والتقاليد والشيم العربية القبلية في الجاهلية مثل العفة التى أضفاها عليه الإسلام ، وجاء بعضه معبراً عن المعاني الإسلامية من خلال الشكوى والتضرع والتماس الفرج ورفع الغمة والمصاب . وقد صبغ هذا الشعر بالحزن والكآبة والشكوى من ظلم الحبيبة وظلم الأهل والوشاة، ويكثر في هذا الشعر الحديث عن الفراق والرحيل والأرق والهزال والآلام ، وهو شعر حزين فيه كآبة وشكوى وتضرع واسترحام وتصوير للألم والأمل .

ونحاول أن نقف عند أهم الأفكار والمعاني التي طرقها الشاعر العذري، ثم نقف عند صورة المرأة في الشعر وموقفها من الشاعر .

البين والفراق :

كان أشد ما يثير عواطف الشاعر ويكثر حنينه وتضطرم أشواقه حين ترحل عنه حبيبته، سواء برحيلها إلى ارض زوجها أم برحيل القبيلة ونأيها

عنه، وقد كثرت الأشواق والعواطف والآلام بذكر الفراق والرحيل، ويعجب قيس بن الملوح كيف لم يمت حين علم أن ليلى راحلة وكيف يكون حاله وقد بعدت عنه ولا سبيل للوصل إليها : (١)

أمزمعَةٌ للبين ليلى ولم تَمُتْ كأنَّك عمَّا قد أضلَّكَ غافلُ
ستعلمُ إنْ شطَّتْ بهم غُرْبَةُ النَّوى وزالوا بليلى أنَّ لُبَّكَ زائلُ
وأنَّكَ ممنوعُ التَّصبُّرِ والعَزَا إذا بَعُدَتْ ممَّنْ تُحبُّ المنازلُ

ويصف حاله عند الفراق وما يقاسيه من آلام إذ لم يشفق عليه أحد وحتى حبيبته لم ترحمه، وكاد بعيرها لما شهده من عذابه أن يشاركه آلامه ويبكي له ، وهذا ملمح عاطفي بمشاركة الحيوان بمشاعره وهو أمر شائع في شعر العذريين: (٢)

فما رحمتْ يومَ التَّفَرُّقِ مهجتي وقد كاد يبكي رحمةً لي بعيرُها
ولا لي رَثَتْ لَمَّا شَكَوْتُ صبابتي ولا أطفأتْ ناراً يُشَبُّ زفيرُها

ويجعل قيس من صورة الحيوان المعذب الذي وقع في شراك الصائد فيخفق بجناحيه، كما يخفق قلبه ويضطرب ويتعذب حين علم برحيل ليلى، ويجعل من محنة القطاة وعذابها في أسرها، صورة لما يلقيه من عذاب البين والفراق :(٣)

كأنَّ القلبَ ليلةَ قيلَ يُغْدى بليلى العامريَّة أو يُراحُ
قطاةُ عزَّها شَرَكٌ فباتتْ تُجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ

---

(١)ديوان مجنون ليلى ص ٢١٥ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط دار مصر للطباعة ، القاهرة .

(٢)الديوان ص ١٤٧ .

(٣) الديوان ص ٩٠ .

لها فرخانِ قد تُركا بقَفْرٍ وعشهما تُصَفِّقُهُ الرياحُ
إذا سَمِعا هُبوبَ الرِّيحِ هَبَّا وقالا أُمُّنا تأتي الرَّواحُ
فلا بالليلِ نالتْ ما تُرَجِّي ولا في الصُّبحِ كان لها بَراحُ

ويجعل قيس بن ذريح الفراق قريناً للموت، وكل ملمة في الحياة تهون غير فرقة الأحباب فإنه لا صبر عليها ففيها مرارة العيش ويتقطع قلبه حسرات : (١)

وكلُّ مُلمَّاتِ الزمانِ وجدْتُها سوى فُرقَةِ الأحباب هَيِّنَةَ الخَطْبِ
إذا افتَلَتَتْ منكَ النَّوى ذا مودَّةٍ حبيباً بتَصْداعٍ من البَيْنِ ذا شَعْبِ
أذاقَتْكَ مُرَّ العَيْشِ أو مُتَّ حَسْرَةً كما ماتَ مَسْقِيُّ الضَّياحِ على ألْبِ
وقُلتُ لقلبي حينَ لجَّ بيَ الهوى وكَلَّفني ما لا يُطيقُ من الحُبِّ
ألا أيها القلبُ الذي قادهُ الهوى أفِقْ لا أقَرَّ اللهُ عينَكَ من قلبِ

ويصف جميل حاله بعد رحيل بثينة وقد صدعت قلبه بهذا الفراق، وبقي حزيناً مشوقاً يجتر ذكرياته أيام كان يلقاها ويحن إليها :(٢)

رحلَ الخليطُ جمالَهم بسواد وحدا على إثَرِ البخيلة حادي
ما إنْ شَعَرْتُ ولاسمعْتُ بِبَيْنِهمْ حتى سمعْتُ به الغُرابَ يُنادي
لما رأيتُ البَيْنَ قُلتُ لصاحبي صَدَعَتْ مُصَدِّعَةُ القلوبِ فؤادي
بانوا وغودِرَ في الديارِ مُتَيَّمٌ كَلِفٌ بذِكْرِك يا بُثَيْنَةُ صادي

ويحدث كثيرعزة نفسه حديث المتردد بتصديق فراق حبيبته وما سيكون

---

(١)شعر قيس ولبني، ص ٦٦، شعر ودراسة، حسين نصار، ط دار مصر للطباعة، القاهرة، د. ت.

(٢)ديوانه ص ٦٦ ـ ٦٧ . متيم: شديد الحب. الكلف: العاشق. الصادي الشديد العطش .

حاله بعد الفراق، ويعزي نفسه بفراق غيره من المحبين، ولكنه يتابع مسير الركب ويتخيل المواضع التي وصل إليها وحل بها، وقلبه يتقطع شوقاً وأسىً كانه طعين ينزف هماً وحسرةً :(١)

أبائنةٌ سُعدى ؟ نعم ستبينُ كما انبَتَّ من حبلِ القرينِ قرينُ
أإنْ زُمَّ أجمالٌ وفارقَ جيرةٌ وصاحَ غُرابُ البَيْنِ أنتَ حزينُ
كأنَّكَ لم تسمعْ ولم تَـرَ قبلَها تفَرُّقَ ألأَف لهنَّ حنينُ
حنينٌ إلى ألأفهنَّ وقد بدا لهُنَّ من الشَّكِّ الغَداةَ يقينُ
وهاجَ الهوى أظعانُ عَزَّةَ غُدْوَةً وقد جعلتْ أقرانهنَّ تبينُ
كأني وقد نكَّبْنَ بُرْقَةَ واسطٍ وخلَّفْنَ أحواضَ النُّجَيْلِ طعينُ
فأتبَعتُهُمْ عَيْنَيَّ حتى تلاحَمَتْ عليها قنانٌ من خَفَيْنَنَ جُونُ

غراب البين :

ومن الموضوعات التي دارت في شعر العذريين مرتبطة بالفراق والبعاد، ذكر غراب البين والتشاؤم به، وكان العرب ـ وما زالوا شأنهم شأن الأمم الباقية ـ يتشاءمون من الغراب نذير الشؤم والفراق والخراب،وفي أمثالهم :(أشأم من غراب البين)(٢) لأنه يقف على الخرائب والديار المهجورة البالية، ولذلك قرنوا اسمه بالفراق فقالوا(غراب البين) لأنه ينذر بتفرق

---

(١)ديوان كثير عزة ص ١٧٠ ـ ١٧٢، تحقيق إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت ١٩٧١ . كنى باسم سعدى عن عزة. انبتَّ : انقطع. زمت الجمال: وضعت لها الأزمة استعداداً للرحيل. نكبن : انحزن إلى جانب . البرقة: الأرض الغليظة فيها رمل وحجارة. واسط : واد بالحجاز .النجيل: موضع بين الصفراء وينبع . تلاحمت عليها : غطت عليها. القنان: جمع قنة وهي رأس الجبل. خفينن: موضع بين ينبع والمدينة .
(٢)مجمع الأمثال ٣٨٢/١، جمهرة الأمثال ٥٥٩/١ .

الشمل، يقول الدميري : " إن غراب البين نوعان، أحدهما غراب صغير معروف باللؤم والضعف، وأما الآخر فإنه ينزل في دور الناس ويقع على مواضع إقامتهم إذا ارتحلوا عنها وبانوا منها، وإنما قيل لكل غراب غراب البين ، فلما كان هذا الغراب لا يوجد إلا عند بينونتهم عن منازلهم اشتقوا له هذا الاسم البينونة. ويقول المقدسي في صفة غراب البين إنه غراب أسود ينوح نوح الحزين المصاب، وينعق بين الخلان والأحباب، إذا رأى شملاً مجتمعاً أنذر بشتاته، وإن شاهد ربعاً عامراً بشر بخرابه ودروس عرصاته، يعرِّف النازل والساكن بخراب الدور والمساكن، ويحذِّر الآكل بغصة المأكل، ويبشر الراحل بقرب المرحل، ينعق بصوت فيه تحزين، كما يصيح المعلن بالتأبين " (١)،وما دام البين مرتبطاً بالغراب فقد ذكره الشعراء كلما أنذروا بالفراق وبانت أحبابهم، وقد ذكره الشعراء العذريون وتشاءموا منه ودعوا عليه بالقتل والذبح والهلاك، يقول قيس بن الملوح يخاطب الغراب ويسائله وقد رآه ساقطاً على شجرة وهو ينعق : (٢)

ألا ياغرابَ البَيْنِ هَيَّجْتَ لوعتي فوَيْحَكَ خَبِّرني بما أنتَ تصرخُ
أبالبينِ من ليلى فإنْ كنتَ صادقاً فلا زالَ عظمٌ من جَنَاحكَ يُفْسَخُ
ولا زالَ رامٍ فيكَ فَوْقَ سهمَهُ فلا أنتَ في عُشٍّ ولا أنتَ تفرُخُ

ويشفي قيس غليله من الغراب بالدعاء عليه بأن تنزل عليه صنوف العذاب من الطرد والذل والهوان والقتل والتمثيل بجثته بعد قتله :

ولا زلتَ عن عذبِ المياهِ مُنَفَّراً ووكْرُكَ مهدوماً وبَيْضُكَ يُرْضَخُ

---

(١)حياة الحيوان : الدميري ٢/٢٩٩، المطبعة العامرة ، القاهرة ١٣٣٠ هـ .
(٢)ديوان مجنون ليلى ص ٩٦ .

فإنْ طرْتَ أردَتْكَ الحُتُوفُ وإنْ تقَعْ تقَيَّضَ ثُعْبانٌ بوجهكَ ينفَخُ
وعايَنْتَ قبلَ الموتِ لحمَكَ مُشْرَحاً على حَرِّ جمرِالنارِ يُشْوى ويُطبَخُ
ولا زِلْتَ في شَرِّ العذابِ مُخَلَّداً وريشُكَ منتوفٌ ولحمُكَ يُشْدَخُ

وكذلك يتشاءم قيس بن ذريح من الغراب الذي ينبئ بفراق لبنى فهو حين يذكر حبيبته يطير هذا الغراب المشؤوم عن شماله، وكانوا يتشاءمون من الطير إذا طار من شمالهم ويسمونه البارح، ويتفاءلون به إذا طار عن يمينهم ويسمونه السانح،فقيس يدعو على هذا الغراب المشؤوم بالهلاك : (١)

ألا يا غرابَ البَيْنِ ما لكَ كُلَّما ذكرتُ لُبيْنى طرتَ لي عن شماليا
أعندكَ علمُ الغيبِ أم لستَ مُخْبري عن الحيِّ إلا بالذي قد بدا ليا
فلا حملتْ رجلاكَ عُشّاً لبيضَةٍ ولا زالَ عظمٌ من جَناحِكَ واهيا

ويتشاءم جميل بثينة من صوت الغراب الذي ينذر برحيل حبيبته، ويقارن بين شؤم الغراب وصوت الحمامة التي تهيج أشجانه وتذكره بحبيبته بثيتة : (٢)

ألا يا غُرابَ البَيْنِ فيمَ تصيحُ فصوتُكَ مشْنِيٌّ إليَّ قبيحُ
وكلُّ غداةٍ لا أبا لكَ تنتحي إليَّ فتلقاني وأنتَ مُشيحُ
تحدثني أنْ لستُ لاقيَ نعمةٍ بعُدْتَ ولا أمسى لديكَ نصيحُ
فإنْ لم تَهِجْني ذاتَ يومٍ فإنَّهُ سيَكْفيكَ ورقاءُ السَّراةَ صَدوحُ

ويستخبر عروة بن حزام الغربان فيم تنوح هل هذا النواح نذير فراق حبيبته، فإن كان الأمر كذلك فإن في ذلك موته، ولا ضير أن يكون جسمه

---

(١)شعر قيس ولبنى ص ١٦١ .

(٢)ديوان جميل بثينة ص ٥٠ .صوتك مشني : قبيح. تنتحي: تميل. مشيح: معرض. ورقاء: حمامة. السراة: الظهر .

الهزيل طعاماً لهذه الغربان :(١)

ألا يا غُرابَي دِمْنَةَ الدارِ بَيِّنا أبا الصَّرْمِ من عفراءَ تنتحبانِ

وقد جعل قيس بن ذريح هذا الغراب الذي ينذر بالشؤم رسول خير يخبره عن أمر لبنى، وان صوته قد هيَّج أشجانه ففاضت عينه بالدموع الغزيرة الجارية : (٢)

ألا يا غُرابَ البينِ هل أنتَ مُخْبري بخيرٍ كما خبَّرْت بالنأي والشرِّ

وخَبَّرْتَ أنْ قد جَد بَيْنٌ وقرَّبوا جِمالاً لبَيْنٍ مُثْقَلاتٍ من الغَدْرِ

وهجْتَ قَذى عينٍ بلُبنَى مريضة إذا ذُكِرَتْ فاضتْ مدامعُها تجري

وقلتَ كذاكَ الدهرُ ما زالَ فاجعاً صدقتَ وهل شيءٌ بباقٍ على الدهرِ

ولا يجد مجنون ليلى حرجاً بأن يجعل هذا الغراب المشؤوم رسولاً لليلى يبلغ تحياته وأشواقه :(٣)

ألا يا غُرابَ البينِ إنْ كنتَ هابطاً بلاداً لليلى فالتمسْ أنْ تكَلَّما

وبَلِّغْ تحياتي إليها وصبوتي وكُنْ بعدها عن سائرِ الناسِ أعجما

الطيف وخيال الحبيبة :

ونتيجة للبين والفراق يظل الشاعر العذري متذكراً حبيبته يراها في خياله وتأمله وأحلامه، في صحوته وغفوته، ولكثرة تأمله يرى طيفها يزوره في المنام أو في أحلام اليقظة، إن الطيف هو تعويض لما يفتقده الشاعر

---

(١)ديوان عروة بن حزام ص ٤٢ ط دار الجيل بيروت ١٩٩٥ .

(٢)شعر قيس ولبنى ص ٩٤ .

(٣)ديوان مجنون ليلى ص ٢٥٨ .

وتحقيق اللقاء في صورة الحلم، يقول أبو بكر الأصفهاني صاحب كتاب الزهرة :" إن من فاته الوصال، نعشه الخيال " ويصف حال مجنون ليلى : " فهذا البائس إذاً تناعس وليس بناعس ليتعلَّلَ بخيالها إذا فاته ما يؤمله من وصالها" (١)، ويرى داود الأنطاكي أن الطيف وخيال المحبوب : " أمرٌ مهم عند أهل الغرام يتوصل إليه بالمنام، وإنما تدعو الحاجة إليه عند طول الهجر وشدة الضجر ومقاساة نار الملل والسهر " (٢) ، وقد أحب العذريون الليل لأنه وسيلتهم للقاء الحبيبة حيث يزورهم طيفها في المنام فيسعدون بوهم اللقاء ، يقول جميل بثينة :(٣)

أمنك سرى يا بُثْنَ طيفٌ تأوَّبا هدوءاً فهاجَ القلبَ شوقاً وأنصبا
عجبتُ له أنْ زار في النوم مضجعي ولو زارني مستيقظاً كان أعجبا

ويتكلف المجنون النوم والنعاس ليرى فيه حبيبته : (٤)

وإني لأستغشي وما بي نعسَةٌ لعلَّ لقاها في المنام يكونُ

ولكثرة ما يفكر بليلى فقد يختلط عليه هل رآها في اليقظة حقاً أم فيالمنام :(٥)

أفي النوم يا ليلى رأيتُك أم أنا رأيتُك يقظاناً فعندي شُهودُها
ضمَمْتُك حتى قلتُ ناري قد انطفتْ فلم تُطْفَ نيراني وزيدَ وقودُها

ويحقق جميل أمنياته في لقاء بثينة في المنام فيرى طيفها فتعطيه

---

(١)كتاب الزهرة ص ٢٦٠ نشر لويس نيكل البوهيمي ط بيروت ١٩٣٢ ٢٩ .
تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق ٢/ ٥٠ ط الأزهرية المصرية، القاهرة ١٣٢٨ هـ .
(٣)ديوانه ص ٣٦ . تأوب: عاد. أنصب: أتعب .
(٤)ديوان مجنون ليلى ص ٢٦٥ .
(٥)السابق ص ١٠٨ .

في المنام ما حُرم منه في اليقظة : (١)

وكم لي عليها من ديون كثيرةٍ طويلٍ تقاضيها بطيءٌ قضاؤها
تجودُ به في النومِ غيرَ مُصَرَّدٍ ويُحْزَنُ أيقاظاً عليَّ عطاؤها

ويقظي جميل نهاره معذباً محروماً حتى إذا جنَّه الليل تلتقي روحه بروح حبيبته فيسعد بلقاء طيفها : (٢)

أظلُّ نهاري لا أراها وتلتقي مع الليلِ روحي في المنامِ وروحها
فهل لي في كتمان حُبيَ راحةٌ وهل تَنْفَعَنِّي بَوْحةٌ لو أبوحُها

وينتظر المجنون الليل شوقاً إلى لقاء طيف ليلى ولو في المنام : (٣)

نهاري نهارُ الناسِ حتى إذا بدا ليَ الليلُ هَزَّتْني إليكِ المضاجعُ
أقَضِّي نهاري بالحديثِ وبالمُنى ويجمعُني والهَمَّ بالليلِ جامعُ

فهو في نهاره منشغل كما ينشغل الناس ولكن إذا جنه الليل انصرف إلى حبيبته لا يشغله أحد عنها، وكذلك ينفرد قيس لبني بحبيبته مفكراً بها يرعى نجوم السماء لا أحد معه غير همومه : (٤)

سل الليلَ عني كيف أرعى نجومَهُ وكيف أقاسي الهمَّ مستخلياً فردا

---

(١) ديوان جميل ص ٢٢ .
(٢)الديوان ص ٥١ .
(٣)ديوانه ص ١٨٥ .
(٤)شعر قيس لبنى ص ٨٣ .

أحوال الشاعر العذري ومعاناته :

لقد صور الشاعر العذري ما يعانيه وما يقاسيه من ألم وحب وحرمان ويأس، وكان شعره صورة لعشقه ومعاناته، فهو أسير الحب كما يقول جميل : (١)

ألا قاتل الله الهوى كيف قادني كما اقتيد مغلولُ اليدين أسيرُ

وهو واقع في أسر حبيبته بثينة :(٢)

صادت فؤادي يا بثينَ حِبالُكم يومَ الحَجونِ وأخطأتْكِ حبائلي

والشاعر منقاد لسلطان الحب راضٍ بحكم حبيبته مهما كان حكمها جائراً ، يقول المجنون :(٣)

وإني لأهواها مسيئاً ومُحْسناً وأقضي على نفسي لها بالتي تقضي

وهو طائع لها يتقبل ما تعطيه ويتجنب مالا ترضاه : (٤)

وآخذُ ما أعطيتِ عفواً وإنني لأزورُّ عمّا تكرهينَ هيوبُ

وكذلك كان حال كثير عزة يرضى بما يرضيها حتى لو كان افتراءً منها :(٥)

وإني وإن صدت لمثنٍ وصادقٌ عليها بما كانت إلينا أزلّتِ

وهؤلاء العشاق ضعفاء حيال من يحبون يرضون بالذلة والهوان تجاه من يحبون، يقول جميل : (٦)

إني إليكِ بما وعدتِ لناظرٌ نظرَ الفقيرِ إلى الغني الموسرِ

---

(١)ديوانه ص ٩٩ .

(٢)ديوانه ص ١٨٠ . (٣)ديوانه ص ١٧٦ .

(٤)ديوانه ص ٥٧ . (٥)ديوانه ص ١٠١ .

(٦)ديوانه ص ١٠٩ .

يعدُ الديونَ وليس يُنْجزُ موعداً هذا الغريمُ لنا وليسَ بمُعْسِرِ

وهم منقادون لمن يحبون يرضون بالقليل وإن كان وعداً كاذباً ويمنُّون أنفسهم الأماني ، يقول جميل : (١)

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو ابصره الواشي لَقَرَّتْ بلابِلُهْ
بلا وبألا أستطيعُ وبالمُنى وبالأملِ المرجوِّ قد خابَ آمِلُهْ
وبالنظرةِ العَجْلى وبالحولِ تنقضي أواخِرُهُ لا نلتقي وأوائلُهْ

أما قيس بن ذريح فإنه يسلي نفسه بأنه وإن لم يستطع الوصول إلى حبيبته لبنى، فإنه يقنع بأن روحيهما تلتقيان حيث نسيم الجو يجمع بينهما، وكذلك تجمعهما الأرض ونجوم السماء حين ينظران فتلتقي نظراتهما: (٢)

فإنْ تكُ لُبنى قد أتى دونَ قُرْبِها حجابٌ منيعٌ ما إليه سبيلُ
فإنَّ نسيمَ الجوِّ يجمعُ بيننا ونُبْصِرُ قَرْنَ الشمسِ حينَ تزولُ
وأرواحُنا بالليلِ في الحيِّ تلتقي ونعلمُ أنَّا بالنهارِ نقيلُ
وتجمعُنا الأرضُ القرارُ وفوقنا سماءٌ نرى فيها النجومَ تجولُ
إلى أنْ يعودَ الدهرُ سِلْماً وتنقضي تِراتٌ بغاها عندنا وذُحولُ

والشاعر العذري حائر يائس لا يدري ما يفعل حيال من يحب، وليس له إلا أن يندب حظه المشؤوم يقول المجنون مصوراً حيرته :(٣)

فوالله ثم الله إني لذائبٌ أفكرُ ما ذنبي إليها وأعجبُ
ووالله ما أدري علامَ هجرتني وأيُّ أموري فيكِ يا ليلُ أركبُ
أأقطعُ حبلَ الوصلِ فالموتُ دونَهُ أم اشربُ كأساً منكمُ ليسَ يُشْرَبُ

---

(١)ديوانه ص ١٦٩ .
(٢)ديوان قيس لبنى ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ط صادر بيروت ١٩٩٨ .
(٣)ديوانه ص ٤٥ .

أم اهرَبُ حتى لا أرى لي مُجاوِراً أم افعلُ ماذا؟ أم أبوحُ فأغلبُ
فأيهُما يا ليلُ ما تفعلينهُ فأولُ مهجورٌ وآخرُ مُعْتِبِ

والشاعر العذري حائر لا يدري ما يصنع، تعتريه الوساوس ويصيبه الذهول، وقد عبر المجنون عن هذه الحال، يقول : (١)

فوالله ما في القربِ لي منكِ راحةٌ ولا البُعْدُ يُسْليني ولا أنا صابرُ
ووالله ما أدري بأيَّةِ حيلةٍ وأيِّ مرامٍ أو خِطارٍ أُخاطِرُ

ومن حيرته يدعو الله سبحانه أن يحسنه في عيني ليلى، أو يبغضها إليه، فقد لقي من هذا الحب ما لاطاقة له به : (٢)

فيا ربِّ إذ صَيَّرْتَ ليلى لي الهوى فَزِنِّي بعينيها كما زِنْتَها ليا
وإلا فبَغِّضْها إليَّ وأهلَها فإنِّي بليلى قد لقيتُ الدواهيا

التذكر يثير الشجن :

كانت تسلية الشعراء العشاق أن يتذكروا أيام الصفاء واللقاء وأحاديث الحبيبة فيجدوا في ذلك لذة وسلوى عن البعد والهجر والفراق، يقول المجنون مستذكراً أيام النعيم الذي زال :(٣)

تذكرتُ منها بالعشيَّاتِ والضحى لذاذةَ دنيا قد تولَّى نعيمُها

ويضاحك جميل ذكرى بثينة وهو فرح سعيد :(٤)

ألم تعلمي يا أمَّ ذي الودعِ أنَّني أضاحكُ ذكراكم وأنتِ صلودُ

---

(١) ديوانه ص ١٢٦ .
(٢)ديوانه ص ٢٩٦ .
(٣)ديوان مجنون ليلى ص ٢٥٢ .
(٤) ديوانه ص ٦٧ .

وحين يمر جميل بديار الحبيبة يتذكر أيام النعيم فتهيج أشجانه وأحزانه :(١)

أهاجتْكَ المنازلُ والطلولُ عفونَ وخَفَّ منهنَّ الحُمولُ
نعم وذكرتُ دنيا قد تقَضَّتْ وأيُّ نعيمِ دنيا لا يزولُ

وكل شيء جميل يذكر بالحبيبة فالريح المنعشة والصوت الشجي وخاصة صوت الحمام يناغي بعضه يذكّر بحديث المحبين، يسمع المجنون هذا الهديل فتهيج أشجانه وتضطرم أشواقه ويتذكر ليلى فيقول : (٢)

دعاني الهوى والشوق لما ترنَّمتْ هَتُوفُ الضحى بين الغصونِ طروبُ
تجاوبُ ورقاً قد أصخْنَ لصوتها فكُلٌّ لكُلٍّ مُسْعِدٌ ومُجيبُ
فقلتُ حمامَ الأيكِ ما لكَ باكياً أفارقْتَ إلْفاً أم جَفاكَ حبيبُ
فقال رماني الدهرُ منه بقوسه وأعرضَ إلْفي فالفؤادُ يذوبُ
تذكّرُني ليلى على بُعْد دارِها وليلى قَتُولٌ للرجالِ خَلوبُ

ويحاول قيس بن ذريح أن يتناسى ذكر لبنى ولكنه لا يستطيع فذكراها موصولة بخاطره فتهيج أشجانه وتديم عذابه : (٣)

أُريد سُلُواً عن لُبَيْنى وذكرها فيأبى فؤادي المستهامُ المتَيَّمُ
إذا قلتُ أسلوها تعرَّضَ ذكرُها وعاودني من ذاك ما الله أعلمُ

وإذا كان تذكر الحبيبة يثير الأشجان ويكثر الأحزان، فإنه أحياناً يكون سلوة للنفس وراحة للفؤاد فالذكرى تنعش الآمال وتثير الأشواق فيهتز لذكراها ويضطرب، يقول المجنون:(٤)

---

(١)ديوانه ص ١٦٤ .
(٢)ديوانه ص ٢٥٨ .
(٣)ديوانه ص ١٤٧ .
(٤)ديوانه ص ١٥٩ .

إذا ذُكِرتْ ليلى أُسَرُّ بذكرها كما انتفض العُصفورُ من بَلَلِ القَطْرِ

ويقول جميل : (١)

ويرتاح قلبي والتنوفةُ بيننا لِذِكراك أو ينهَلُّ دمعي فيسْفَحُ

وقد يحدث تذكر الحبيبة في النفس شعوراً بريئاً بالفرح كفرح الطفل الرضيع حين يهش لثدي أمه، يقول قيس لبنى :(٢)

فإنْ ذُكِرت لُبنى هشَشْتُ لذِكرها كما هشَّ للثدي الدرورِ وليدُ

أمنيات اليائسين :

وقد دفع هذا الحب الشديد الذي وقفت في طريقه عوائق المجتمع والتقاليد والسلطان، إلي أن يتمنى هؤلاء الشعراء العذريون أمنيات مستحيلة كي يحققوا أحلامهم ورغباتهم بالانفراد بمن يحبون، فهذا عروة بن حزام يدعو ربه أن يلتقي كل محبين سواءٌ أكانوا من الناس أم من الحيوان : (٣)

فيا ربِّ أنتَ المستعانُ على الذي تحملتُ من عفراءَ منذُ زمانِ

فيا ليتَ كلُّ اثنين بينهما هوىً من الناسِ والأنعامِ يلتقيانِ

فيقضي مُحِبٌّ من حبيبٍ لُبانةً ويرعاهما ربي فلا يُرَياني

وهذاكثير عزة يتمني أمنية غريبة بأن يكون وعزة بعيرين أجربين لذي غنى كي ينعما بالخلوة بعيدين عن الناس مطرودين :(٤)

---

(١)ديوانه ص ٤٦ .

(٢)ديوانه ص ٨٠ .

(٣) ديوانه ص ٣٧ ط دار الجيل ١٩٩٥ .

(٤)ديوان كثير عزة ص ١٦١ .

ألا ليتنا يا عَزُّ كنا لذي غنى بعيرين نرعى في الخلاء ونَعْزُبُ
كلانا به عُرٌّ فمَنْ يرَنا يقُلْ على حُسْنها جرباءُ تُعْدي وأجرَبُ
إذا ما وردنا منهَلاً صاحَ أهلُهُ علينا فما ننفكُّ نُرْمى ونُضْرَبُ

وهي الأمنية نفسها التي تمناها عروة بن حزام في سياق الدعوة على عمه الذي فرق بينهما :(١)

فيا ليتَ عمِّي يومَ فرَّقَ بيننا سُقيْ السُّمَّ ممزوجاً بشَبٍّ يمانِ
بُثَيْنَةُ عمِّي حيْلَ بيني وبينَها وضَجَّ لوَشْك الفُرْقَة الصُّرَدانِ
فيا ليتَ محيانا جميعاً وليتَنا إذا نحنُ مُتْنَا ضمَّنا كَفَنانِ
ويا ليتَ أنَّا الدهرَ في غير ريبةٍ بعيرانِ نرعى القَفْرَ مؤتلفانِ
يُطَرِّدُنا الرُّعيانُ عن كلِّ منهَلٍ يقولون بَكْرا عُرَّةٍ جَرِبانِ

أما مجنون ليلى فيتمنى أمنيات متعددة كلها تفضي إلى الخلو بحبيبته بعيداً عن الناس ، يقول :

ألا ليتَنا كُنَّا غزالَيْنِ نرتعي رياضاً من الحَوْذانِ في بلدٍ قَفْرِ
ألا ليتنا كُنَّا حمامَيْ مفازةٍ نطيرُ ونأوي بالعَشيِّ إلى وكْرِ
ألا ليتَنا حوتانِ في البحر نرتمي إذا نحنُ أمسينا نُلَجِّجُ في البحرِ

---

(١)ديوان عروة بن حزام ص ٤٤ ـ ٤٥ . الصردان : طائر أبقع ضخم الرأس والمنقار يكون في الشجر يقال له أخطب لاختلاف لونيه الأبيض والأسود.

وصف حاله وما نزل به من سقم وهزال :

ومن شدة الحب لازم المحبين المرض والضنى وسوء الحال، وكان أشد من نزل به الضنى والسقام عروة بن حزام حتى قضى عليه، فهو يصور حاله فيقول :(١)

تحملتُ من عفراءَ ما ليسَ لي به ولا للجبالِ الراسيات يدانِ
كأنَّ قطاةً عُلِّقَتْ بجناحها على كَبدي من شدَّة الخَفَقانِ

ويعالجه طبيبان عَرَّافان فلم يجدا له شفاءً، فداءُ الحب ليس له شفاءُ :

جعلتُ لعَرَّاف اليمامة حُكْمَهُ وعَرَّافِ نجدٍ إنْ هما شفياني
فقالا نعم نَشْفي من الداء كلِّه وقاما مع العُوَّادِ يبتَدِرانِ
فما تركا من رُقيَةٍ يعلمانها ولا سلوةٍ إلا وقد سقياني
فما شَفَيا الداءَ الذي بي كلَّهُ ولا ذَخَرا نُصْحاً ولا ألَواني
فقالا شفاكَ اللهُ، والله ما لنا بما ضمنت منكَ الضلوع يدانِ

ويخاطب الواشيَيْن اللذين يتعقبانه بالنميمة ، وقد رأياه في حلة زاهية فيقول : إن تحت هذه الحلة جسماً أسقمه الداء ولم يبقَ فيه إلا لحماً قليلاً وعظاماً رقاقاً (٢)

أغرُّكما لا بارك الله فيكما قميصٌ وبُردا يَمنةٍ زَهَيانِ
متى تكشفا عني القميص تبيَّنا بيَ الضُّرَّ من عفراءَ يا فتيانِ
وتعترِفا لحماً قليلاً وأعظُماً دِقاقاً وقَلْباً دائمَ الخَفَقانِ

---

(١)ديوانه ص ٣٩ .

(٢)ديوانه ص ٣٥ ـ ٣٦ .

على كَبِدي من حُبِّ عفراءَ قَرْحَةٌ وعيناي من وَجْدٍ بها تَكِفانِ

العذال والوشاة :

وكان أشد ما يضجر العشاق ويثير حفيظتهم لوم العاذلين والرقباء وسعي الوشاة ووقوفهم بينهم وبين من يحبون، وكان أشد العذريين لوماً وتقريعاً للوشاة وضيقاً بهم عروة بن حزام فهو يصب عليهم لعناته على سوء ما يفعلون : (١)

ألا لعنَ اللهُ الوشاةَ وقولَهُمْ فلانة أضحت خُلَّةً لفُلانِ
إذا ما جلسنا مجلساً نستلذُّهُ تواشَوا بنا حتى أمَلَّ مكاني
تكَنَّفني الواشونَ من كلِّ جانبٍ ولو كان واشٍ واحدٍ لكفاني
ولو كان واشٍ باليمامةِ دارُهُ وداري بأعلى حضرموتَ أتاني

ولم يكن قيس ليلى أقل ضيقاً وضجراً من عروة بن حزام، وقد كثر في شعره ذكر الوشاة والرقباء ، وهو حَنِقٌ عليهم مبغض لهم يضيق بنصائحهم : (٢)

وقالوا لو تشاءُ سلوتَ عنها فقلت لهم : فإني لا أشاءُ
لها حُبٌّ تنشَّأَ في فؤادي فليس له ـ وإنْ زُجِرَ ـ انتهاءُ
وعاذلةٍ تقطِّعُني ملاماً وفي زجرِ العواذلِ لي بلاءُ

ويكثر الوشاة والرقباء من نصائحهم الثقيلة المملة التي ينفر منها المجنون :

سلا كلُّ صَبٍّ حبَّهُ وخليلَهُ وانتَ لليلى عاشقٌ وودودُ

---

(١)ديوانه ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) ديوانه ص ٩٧

وكلما كثر نصح العذال ورقابة الوشاة زاد تعلقه بليلى، فليس له إلا البكاء والضراعة إلى الله أن يعينه على ما يعاني من حب وضنى : (١)

فإن يحجبوهاأو يَحُلْ دونَ وصلها مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أميرِ
فلن يمنعوا عينيَّ من دائمِ البكا ولن يُخرجوا ما قد أجنَّ ضميري
وما برح الواشون حتى بدت لنا بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورِ
إلى اللهِ أشكو ماألاقي من الهوى ومن نَفَسٍ يعتادُني وزفيرِ

أما جميل بن معمر فهو يتحدى الوشاة في تقولهم، ويقر عناداً لهم بحبه لبثينة : (٢)

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إنَّني لكِ عاشقُ
نعم صدق الواشون أنت كريمةٌ علينا وإنْ لم تصْفُ منكِ الخلائقُ
يضمُّ عليَّ الليلُ أطباقَ حُبِّها كما ضمَّ أزرارَ القميصِ البنائقُ

ويتمنى جميل العذاب الشديد للوشاة وأن يسلط عليهم المعذبين القساة فيذيقونهم صنوف العذاب : (٣)

فليتَ وشاةَ الناسِ بيني وبينها يدوفُ لهم سُمّاً طَماطِمُ سودُ
وليتَهم في كلِّ مُمْسى وشارقٍ تُضاعَفُ أكبالٌ لهم وقيودُ

ويخشى جميل أن تستجيب بثينة لأقوال الوشاة وتصدق تقولهم، فهو حريص أن يبرىء نفسه من وشاياتهم وأن يطمئنها من تمكن حبها من قلبه :(٤)

صَدَّتْ بثينةُ عني أن سعى الساعي وآيستْ بعدَ موعودٍ وإطماعِ

---

(١)الديوان ص ١٣٦
(٢)ديوانه ص ٢٥٧ وتنسب الأبيات لقيس ليلى .
(٣)ديوانه ص ٥٩ . (٤) ديوانه ص ١١٧ .

وصدَّقَتْ فيَّ أقوالاً تقوَّلها واشٍ وما أنا للواشي بمطواعِ
فإنْ تبيني بلا جُرْمٍ ولا ترَةٍ وتولعي بيَ ظلماً أيَّ إيلاعِ
فقد يرى اللهُ أني قد أُحِبُّكُمُ حُبَّاً أقامَ جَواهُ بينَ أضلاعِ

ويسأل كُثَيِّر حبيبته عزةَ أن تعاهدة على صدِّ الوشاةِ ويوصيها بزجرهم كما يفعل هو فإنهم أشرار يوقعون بين المحبين :(١)

فيا عَزَّ إنْ واشٍ وشى بيَ عندكم فلا تُكْرميه أنْ تقولي له : أهلا
كما لو وشى واشٍ بودِّك عندنا لقُلْنا تزَحْزَحْ لا قريباً ولا سهلا
فأهلاً وسهلاً بالذي شَدَّ وصلَنا ولا مرحباً بالقائلِ اصْرِمْ لها حَبْلا

---

(١)ديوانه ص ٢١٥ .

المرأة المحبوبة

١ـ جمالها ومحاسنها :

لقد وصف الشعراء العذريون حبيباتهم بصفات لا تختلف كثيراً عن أوصاف الشعراء الحسيين لمحبوباتهم، فقد تناولوا محاسن الجسد وفصلوا في وصف كل جزء إلا أنهم لم يوغلوا في هذه الأوصاف وإنما كان التعميم هو الصفة الشائعة في غزلهم، فجميل يرى حبيبته أجمل النساء وهي كالبدر حسناً : (١)

هي البدرُ حُسْناً والنساءُ كواكبٌ وشَتَّانَ ما بينَ الكواكبِ والبدرِ

ثم يفصل في ذكر محاسنها فيصف لون بشرتها وعينيها وشعرها ثم يتناول صفاتها المعنوية من الحياء والوقار، يقول : (٢)

بيضاءُ خالصةُ البياضِ كأنها قمرٌ توسط جُنْحَ ليلٍ أسودِ
وترى مدامعها ترقرق مقلة سوداء ترغبُ عن سوادِ الإثمدِ
خَوْدٌ إذا كثر الكلامُ تعوِّذتْ بحمى الحياءِ وإن تكلَّم تقصدِ

ويتناول محاسن جسمها فيصف فمها وجيدها وقوامها وما يحب في المرأة من جمال الجسد :(٣)

حلَّتْ بُثَيْنَةُ من قلبي بمنزلةٍ بينَ الجوانحِ لم ينزلْ بها أحدُ

---

(١)ديوانه ص ٩٨ . (٢)الأغاني ٢/٢١ ـ ٢٢ .

(٣)ديوانه ص ٥٤ ـ ٥٥ . الأدماء: الغزالة السمراء.الرشأ: ولد الغزالة. الرخصة: اللينة.الخذل: الممتلىء.الوعث: المكان السهل.الوبد: سوء الحال. الأود: الإعوجاج .

صادتْ فؤادي بعينيها ومبتسمٍ كأنَّهُ حينَ أبدتْهُ لنا بَرَدُ
عذبٍ كأنَّ ذكيَّ المسْكِ خالطَهُ والزَّنجبيلُ وماءُ المُزْنِ والشهدُ
وجيدِ أدماءَ تحنوهُ إلى رشأٍ أغَنَّ لم يتَّبعْها مثْلَهُ ولدُ
رَجْراجَةٌ رَخْصَةُ الأطراف ناعمةٌ تكادُ من بُدْنِها في البيت تنخَضدُ
خَذْلٌ مُخَلْخَلُها وَعْثٌ مُؤَزَّرُها هيفاءُ لم يغْذُها بؤْسٌ ولا وَبَدُ
هيفاءُ مقبلةً عجزاءُ مدبرةً ثَمَّتْ فليس يُرى في خَلْقِها أوَدُ

ويجعل كثير حبيبته أجمل النساء فهي أجمل من الشمس :(١)

لوأنَّ عزَّةَ خاصمتْ شمسَ الضُّحى في الحُسْنِ عندَ موفَّقٍ لقضى لها
وسعى إليَّ بصَرْمِ عَـزَّةَ نسْوةٌ جعلَ المليكُ خُدودَهُنَّ نعالَها

ويصف محاسنها المعنوية فهي حيية خجول حلوة الحديث لا يمل جليسها من أحاديثها فهي جنة لمن يفوز بها : (٢)

من الخَفَراتِ البيْضِ وُدَّ جليسُها إذا ما انقضتْ أحدوثَةٌ لو تُعيدُها
مُنَعَّمَةٌ لم تَلْقَ بُؤْسَ معيشةٍ هي الخُلْدُ في الدنيا لمن يستفيدُها
هي الخلدُ ما دامتْ لأهلكَ جارةً وهل دامَ في الدنيا لنفسٍ خلودُها

وللمرأة سحر وتأثير في نفوس المحبين فعروة بن حزام حين يرى عفراء يبهت ويتحير فلا يدري ما يفعل ولا يدري ما يقول :(٣)

وإني لتعروني لذكراك رِعْدَةٌ لها بين جسمي والعظام دبيبُ
وما هو إلا أنْ أراها فُجاءةً فأبْهتُ حتى ما أكادُ أُجيبُ
وأصرَفُ عن رأيي الذي كنتُ أرتَئي
وأنسى الذي حُدِّثْتُ ثم تغيبُ

---

(١)الديوان ص ٢٣٥ . (٢)ديوانه ص ١٢٦ .
(٣)ديوان عروة بن حزام ص٢٢ ـ ٢٣ .

وكذلك كان قيس بن الملوح إذا جلس في مجلس يظهر أنه يسمع لمحدثه، وهو لا يسمع إلا صوت ليلى وحديثها، فقد ملكت حواسه و سلبت عقله وخياله :(١)

وشغلتُ عن فهم الحديث سوى ما كان منك وحبكم شغلي
وأديمُ لحظَ محدثي كي ما يرى أن قد فهمتُ وعندكم عقلي

وقد استحوذت ليلى على عقل قيس وسلبت إرادته، فصار بيدها سعادته أو شقاؤه : (٢)

وأنتِ التي إنْ شئْتِ نغَّصْتِ عيشتي ولو شئتِ بعد الله أسعدتِ حاليا

ويجعل كثير لحديث عزة سلطاناً على الناس والمتعبدين فهو يفعل فيهم فعل السحر ويصنع بهم الأعاجيب : (٣)

رهبانُ مَدْيَنَ والذينَ عَهِدْتُهم يبكونَ من حَذَرِ العذابِ قُعودا
لو يسمعونَ كما سمعتُ كلامها خَرُّوا لعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودا
والميتُ يُنْشَرُ أنْ تمسَّ عظامهُ مَسّاً ويخلُدُ أنْ يراكِ خلودا

ومن شدة تأثيرها على من يحبها فإن لمسة من لمساتها تبعث السعادة وينبت في يد لامسها الورق الأخضر، وهي في جمالها فتنة تصنع المعجزات، وتتمثل كل المحاسن في وجهها وفي قوامها الذي يهتز كغصن البان النضر ، يقول المجنون : (٤)

تكاد يدي تندى إذا ما لمستها وينبتُ في أطرافها الورقُ الخُضْرُ

---

(١)ديوانه ص ٦٠ .
(٢)ديوانه ص ٢٩٣ .
(٣)ديوانه ١١٣ .
(٤)ديوان مجنون ليلى ص ١٣٠،تزيين الأسواق ص ٢/٧٩ .

ووجه لـه ديباجةٌ قرشيَّةٌ به تُكْشَفُ البلوى ويُستَنْزَلُ القَطْرُ
ويهتَزُّ من تحتِ الثيابِ قوامُها كما اهتَزَّ غُصْنُ البانِ والفَنَنُ النَّضْرُ

والمجنون ينحل حبيبته صفات وقوى خفية تصنع المعجزات :(١)

فلو أنها تدعو الحمامَ أجابَها ولو كلَّمَتْ ميتاً إذاً لتكلَّما
ولو مسحَتْ بالكَفِّ أعمى لأذْهَبَتْ
عَماه وشيكاً ثم عادَ بلا عمى

ووجه الحبيبة يجلب الخير والبركة وتُستنْزَل به الأمطار،كما يقول توبة :(٢)

ولو سألتْ للناسِ يوماً بوجهها سحابَ الثُّرَيَّا لاستهَلَّتْ مواطِرُهْ
بأبلَجَ كالدينارِ لم تطلعْ لـه من العيشِ إلا نعْمَةُ وسرائرُهْ

وكل شيء جميل يذكرهم بمحبوبتهم فكانت الظبية رمزاً للمحبوبة، ففيها محاسن من محاسنها ، يقول قيس بن الملوح : (٣)

رأيتُ غزالاً يرتعي وَسْطَ روضةٍ فقلتُ أرى ليلى تراءت لنا ظهرا
فيا ظبيُ كُلْ رغداً هنيئاً ولا تخَفْ فإنكَ لي جارٌ ولا ترهبِ الدهرا

ويرى جميل أن بثينة كلؤلؤة متلألئة دائمة الصبا والشباب، فقد كبر هو ومازالت هي صبية نضرة :(٤)

وأنت كلؤلؤة المَرْزُبان بماءِ شبابك لم تُعْصَري
قربيبانِ مَرْبَعُنا واحدٌ فكيفَ كَبِرْتُ ولم تَكْبَري

---

(١)ديوانه ص ٢٦٠ .
(٢)ديوانه ص ٤٥ .
(٣)ديوانه ص ١٧١ .
(٤)ديوان جميل بثينة ص ١٠٦ .

وهي عند كثير جميلة تضيء وسط الدجى بل هي كشمس الضحى:(١)

سراجُ الدجى صِفْر الحشا منتهى المنى
وشمسُ الضحى نوّامةً حين تُصْبِحُ

ويراها أجمل من شمس الضحى :(٢)

لو أنَّ عَزَّةَ خاصمتْ شمْسَ الضُّحى
في الحُسْنِ عندَ موفَّقٍ لقضى لها

ولم يترك الشعراء العذريون صفة من صفات الحسن والجمال إلا نسبوها إلى محبوباتهم فهم يرونهن منتهي الحسن والجمال، لأنهم يرونهن بخيالهم وعواطفهم وأشواقهم لا بأعينهم .

٢ـ بخل الحبيبة وتمنعها:

وصف الشعراء العذريون المرأة المحبوبة بالقسوة والتمنع والبخل وخُلْف الوعد، وقد جاءت هذه الصفات عند شعراء الغزل عامة، وهي صفات مدح وليست ذماً للمرأة، فالشاعر حين يذكرها بهذه الصفات فإنه يشيد بها لأنها امرأة عفيفة كريمة عزيزة صعبة المرام، أما لو وصفها بغير ذلك فإنها تكون مبتذلة سهلة المنال كبنات الهوى، وحقاً إن الشاعر يعاني ويتذمر من قسوة حبيبته وتمنعها، ولكنه يسر بهذه الصفات ويزداد حباً لها وتعلقاً بها ،فيعدد مجنون ليلى ما سببته ليلى له من آلام وأوجاع يقول شاكياً ومعاتباً :(٣)

---

(١)ديوان كثير عزة ص ٤٦٣ .
(٢)السابق ص ٣٩٤ .
(٣) ديوانه ص ٢٤٧ .

وأنتِ التي كلَّفتني دَلَجَ السُّرى وجُونُ القطا بالجلهتين جُثومُ
وأنتِ التي قطَّعْتِ قلبي حزازةً ورقْرَقْتِ دَمْعَ العينِ فهي سَجومُ
وأنتِ التي أغضَبْتِ قومي فكُلُّهمْ بعيدُ الرِّضَى داني الصدودِ كظيمُ
وأنتِ التي أخلَفْتِني ما وعَدتني وأشْمَتِّ بي مَنْ كانَ فيكِ يلومُ
وأبرَزْتِني للناسِ ثم تركتِني لهم غَرَضاً أُرْمى وأنتِ سليمُ
فلوأنَّ قولاً يَكْلِمُ الجسمَ قد بدا بجسميَ من قولِ الوشاةِ كُلُومُ

ويذكر كثير قوة تأثيرها وشدة سلطانها عليه :(١)

هي العيشُ ما لاقَتْكَ يوماً بودِّها وموتٌ إذا لاقاكَ منها ازورارُها

وهي بخيلة لا تجود بودها، والبخل من شيَمها :(٢)

ألا إنها ليست تجودُ لذي الهوى بل البخل منها شيمة والخلائق

وإذا وعدت فهي تماطل ولا تفي بوعدها:(٣)

إني إليكِ بما وعدتِ لناظرٌ نظرَ الفقيرِ إلى الغني الموسرِ
يعدُ الديونَ وليس يُنْجِزُ موعداً هذا الغريمُ لنا وليس بمُعْسِرِ
ما أنتِ والوعدَ الذي تعدينني إلا كبَرْقِ سحابةٍ لم تُمْطِرِ

وهي إلى بخلها فإنها عنود متمنعة لا تجيب دعوة من يحبها، يقول كثير :(٤)

كأني أنادي صخرةً حين أعرضتْ من الصُّمِّ لو تمشي بها العُصْمُ زلَّتِ
صفوحٌ فما تلقاكَ إلا بخيلةً فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ ملَّتِ

---

(١)ديوان كثير عزة ص ٤٣٠ .
(٢)ديوان جميل بثينة ص ٧٣ .
(٣)ديوان جميل بثينة ص ٤٧ .
(٤)ديوانه ص ٩٧ .

وكذلك هي غضوب بالإضافة إلى بخلها وعنادها، يقول المجنون :

لعَمْرُ أبيها إنها لبخيلةٌ ومن قولِ واشٍ إنها لغَضوبُ

ويشكو المجنون من ليلى وما أنزلت به من عذاب يؤدي إلى هلاكه :(١)

معذبتي أوردْتني منهَلَ الرَّدى وأخلفتِ منِّي واخترمتِ وصاليا

ومثل هذا المعنى يقول توبة بن الحُمَيِّر ولكن يشفع لها جمال عينيها، ولا ييأس من عودها ورضاها :(٢)

أرتنا حياض الموتِ ليلى وراقنا عيونٌ نقيَّاتُ الحواشي تُديرُها

تُجيرُ وإنْ شَطَّتْ بها غُرْبَةُ النَّوى ستُنْعِمُ يوماً أو يُفادى أسيرُها

والشواهد كثيرة في قسوة المحبوبة وبخلها وتمنعها .

---

(١)ديوانه ص ٣٠٣ .

(٢)ديوان توبة ص ٣٦ .